



## الإيتوبيا: الدلالة والآفاق

شريف الدين بن دوبة  
جامعة سعيدة – الجزائر  
bendouba.philos@yahoo.fr

*Received: 28 June 2013,  
Revised: 22 Dec. 2013, Accepted: 23 Jan. 2014  
Published online: 1 May 2014*



# الإيتوبيا: الدلالة والآفاق

شريف الدين بن دوبه<sup>(١)</sup>

جامعة سعيدة - الجزائر

## الملخص

إذا كانت العلامة مجرد غلاف مادي للمعنى، والموت ضرورة حتمية تلاحق المنتج المادي، بناء على المرونة الذهنية التي يتَّسم بها المعنى المحمول في العلامة، والايتوبيا أو الطوباوية. علامة اصطناعية أبدعها المفكر الإنجليزي توماس مور، عنون بها روايته، التي أصبحت منذ سنة ١٥١٦ وثيقة تعويدية للمح النحت الموري. تشذ عن قاعدة الاندثار اللاحق بطبيعة العلامة، إذ لوحظ من خلال القراءات المتعددة للايتوبيا قابلية الكلمة للتأويل، لدرجة أصبحت فيها كلمة إيتوبيا مدرسة لفن جديد في الدراسات السيميائية، ولنمط جديد في الكتابة، وفضاء خصب لاستطاق آفاق جديدة في عالم العلامة.

الكلمات المفتاحية: ايتوبيا طوبيا اودوتوبيا ديستوبيا، تأويل، كتابة منسية، فن العلامة، إمكانية، مشروع مجتمع، عدالة، استيلاّب.



# Utopia: Signification and Horizons

**Bendouba Charif Eddine**

Saida university – Algeria

## Abstract

If the sign is a mere physical cover for meaning, and death is an ultimate inevitability pursuing the physical product based on intellectual flexibility characterizing connotative meaning in the sign, the Utopia then is an artificial mark innovated by Thomas Moore the British thinker when he wrote his novel. Since he wrote the Utopia in 1516, it became a fundamental document for the Moorian style and feature, nonconforming to the rules of annihilation attributed to the nature of the mark. It was observed through various readings to the Utopia, that it is invariably interpretable to the extent the word “Utopia” has become a school of new art in semiotic studies and a new genre of writing and a wide and novel space to infer new scopes in the world of mark.

**Keywords:** Utopia, distopy interpretation, forgotten writing, possibility, community project, justice, alienation.

## الأيثوبيا: الدلالة والآفاق

شريف الدين بن دويه<sup>(١)</sup>

جامعة سعيدة - الجزائر

### توطئة:

أوليدا شرعيا لتلك الشخصية، والمطلوب البحثي في هذه الدراسة تحرّكه الرغبة في تسليط الضوء على صنف أدبي ارتبط وجوده باصطلاح إنساني فردي، وبلانهائية الإمتداد، إذ لم تقف دلالات الاصطلاح الجديد عند الحدود التي رسمها لها صاحبها وإن كان الإيحاء الذي اختاره يند عن كل تحديد أو تأطير جغرافي، أو تاريخي، أو مستقبلي، إنه مصطلح أيثوبيا.

وضع لفظ "أيثوبيا" القارئ أمام جملة من المفارقات الفكرية، أهمها الحضور في مجال الانسان وفي ميدان العلوم، واللذين يشكلان من حيث الطبيعة حقلين متضادين، ففكرة النموذج والمثال ليست حكرا على الفلسفة أو الأدب فقط بل تكون مطلبا منهجيا في جل العلوم، فعلم العمران Architecture مثلا تتأسس في كثير من النظريات العمرانية على التصورات النظرية الأيتوبية، فبحسب "Bruno" .. إن لكل بناء معماري قواعد للايثوبيات التي تعين المشاريع السابقة على تحقيقه والتي تنقلها عادة بعيدة عن النتيجة المبنية في الواقع.<sup>(٢)</sup> فالارشيتوبيا Architopie كمبحث علمي تأسس على ضرورة الأيتوبيا، لأن الخيال والقدرة التصويرية عند عالم العمران مقياس للعبقرية داخل هذا الحقل، فهو الأيتوبي نموذج معطى، ولازم في حركة المجتمع، واستيعاب الحركة في أفق الجماعة هو المطلوب وليس العكس، أي أن يصبح الأفق الذي يمثل بالنسبة للجماعة

الفرق بين الفهم والتفسير في التعاطي البحثي مع المفاهيم أو الظواهر يحاكي الفرق بين عالم الطبيعة وعالم الانسان، والمترتب الذهني عن هذه العلائق القائمة بين الحدود الأربعة نسبية الدقة، وليس الغياب، فزبئية المعاني الانسانية تمنح النسبية صبغة المشروعية، وطبيعة الألفاظ التي تكوّن صور التفكير تكون في غالب الاحوال قبورا للمعاني التي تحملها، إذ تجعل صيغ الأشكلة عنوانا للبحث فيها، ولكن الفعل العدمي الممارس من طرف العلامة حول المعنى لا يلغي حتمية قيام العلامة، بل يضفي على انطولوجيتها السمة الضرورية في الوجود، وإن كانت دلالة الضرورية بين العلامة والمفهوم مسألة إشكالية بين فلاسفة اللغة.

يتفق بنو البشر أن النحت أو الاصطلاح اللغوي من المؤشرات السيكولوجية والاجتماعية على عبقرية العقل البشري، فملكة الترميز عنده علامة مائزة تسمو به على عالم الكائنات الدنيا، فالكون في غياب الرمز مجرد متاهة، كما أن مرجعية الإبداع النصي تكمن في القدرة على البناء اللغوي، أو في خلق النص، لأن المادة اللغوية بشكل خاص، والفكرية بوجه أعم معطاة لجميع الأفراد الناطقين باللغة، ولكن التميز داخل المجال اللغوي يعود الى القدرة على الرسم اللغوي، والتفنن في إنشاء منظومة لغوية تسمح بتتميط المبدع في نسقه الخاص الذي يكون هويته

٢- خوسيه ميغيل بويرطا، البنية الطوباوية لقصور الحمراء، مجلة العرب والفكر العالمي العدد: ٢٠/١٩، ١٩٩٢، ص ٥.

١- أستاذ مساعد شعبة الفلسفة، العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة سعيدة.

اليوتوبية يعتقد أن لفظة ايتوبيا هي ترجمة للفظه اللاتينية "nusquama" المشتقة من Nusquam =le و nulle-par والترجمة الحرفية للمصطلح تشير إلى أن دلالة الكلمة هي "اللامكان" أو لا مكان له " أو ما لا أين له " ومعناه المكان الذي لا وجود له في أي مكان".<sup>(٥)</sup>

أما " تييري باكو " فيذهب الى ان فكرة الايتوبيا عند توماس مور فتعود بالأصل الى ايرازموس، إذ نلمس في كتابه مدح الجنون "éloge de la folie" المقابلة التي اقامها ايرازم بين الجنون والحكمة، فيقول له: " لقد فكرت في اسمك: مورالذي يقترب كثيرا من دلالات الجنون، وان كان يبعد كثيرا عن شخصك"<sup>(٥)</sup>.

تتعدد الترجمات العربية لكلمة utopie متعددة ومنها كلمة "طوبى" " الطوبى"، ونجد الأستاذ خليل أحمد خليل في ترجمته لكتاب Utopies et Les Utopistes للمؤلف تييري باكو Thierry Paquot يستخدم الكلمة "طوبيا والطوباويون"، كبديل لكلمة ايتوبيا رغم ان النص الذي يعتمد عليه مؤلف الكتاب يؤكد الفرق بين الكلمتين " ايتوبيا " و"طوبيا": "(طوبيا، من اجل عزلتي كما سماه القدماء،... منافسة هي للمدينة التي صاحبها أفلاطون.. عليها ربما تفوقت لانني بمجرد حروف رسمت بها... كنت وحدي قد وضعتها.. فالطوبيا اسم يدين لي المرء به ولا جدال في ذلك. Eutopia أو "الطيب" الصالح eu باليونانية، والمكان Topos باليونانية، من هنا جاءت عبارة " بلد السعادة"، وبالتالي فإن ذلك البلد الذي لا وجود له على أية خارطة utopia قد يكون أفضل العوالم Eutopia.<sup>(٦)</sup>

التفرقة واضحة في النص الأصلي للكتاب، وما يدفع الى الغرابة أن الأستاذ خليل أحمد خليل لم يلتزم فيه بالتفرقة التي يشير اليها مور في

٤-عبدالعزیز لبيب، الايطوبيا والايطوبيات، مجلة فصول المجلد السابع العدد: الثالث والرابع سبتمبر ١٩٨٧، ص: ١٢٢.  
5- Erasme, Eloge de la folie, trd: marie delcourt, flammariion, paris, 1987, p.8.

٦- تييري باكو، طوبيا والطوباويون، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفارابي بيروت، ط. ١-٢٠٠٨، ص ١٦/١٧.

قطبا للحركة هو الحركة، ويلمس هذا في اكتساب العادات الاجتماعية السكونية في حين أن العادات في الحقيقة لا تمثل إلا أدوات اجتماعية في بلوغ النموذج المرتقب، وعندما تتحول الوسيلة الى غاية تصبح الأمة مجرد شبح، يقول احد المختصين في هذا الحقل: "مجتمع دون ايتوبيا، مجتمع مهدد بالموت.. " و" ايتوبيا الأمس هي اليوم الواقع"، والبحث العلمي في صورته الكلية يتحرك تبعا لمبدأ النموذج الذي يستقطبه، وفلسفة النموذج تشكل روح اليوتوبيا، أما توظيف العلوم الانسانية لمفاهيم اليوتوبيا، فهي من الكثرة بمكان يجعل استحالة غيابها في فرع منها أمرا بدهيا، فبروز جنس أدبي يعرف بالأدب اليوتوبي دليل على قوة هذا الأصل اللغوي، كما أن أدب الرحلات الذي تمتد جذوره الى ما قبل ابتكار ايتوبيا يجد ايضا في ايتوبيا معينا يُعزّز به تصورات ومخياله الفني او الفلسفي.

#### ١.١ الايتوبيا:

يظهر من خلال بناء كلمة ايتوبيا الصوتي، واللفظي الطابع الغرائبي للفظ ايتوبيا على المؤسسة اللغوية العربية، على غرار كثير من الألفاظ مثل كلمة "فلسفة" وجميع أفراد عائلتها، والذين يجدون شجرة النسب ومرجعية الانتماء ممتدة ومستمدّة من لغة وثقافة الإغريق، إذ إن تاريخ النحت الاصطلاحي للكلمة " ايتوبيا" يقترب باسم الفيلسوف الانجليزي "توماس مور" وكتابه المعنون بـ " ايتوبيا" والذي ضمّنه رحلة بحار اسمه رافائيل هتلوداي لجزيرة اسمها ايتوبيا، تعيش في ظل نظام اجتماعي محكم التأسيس والتسييس.

المرجعية الايتيمولوجية التي اعتمدها "توماس مور" في تواضعية المصطلح إذن اغريقية بحته، فهي مركبة من ou وتعني no أي اللّا، و topos تعني أي مكان place، والكلمة تعني no place أو No where، وتصبح اليوتوبيا: ليست مكانا، أو اللامكان<sup>(٧)</sup>، ورغم أن البعض من المختصين في الدراسات

٢-جميل صليبا، المعجم الفلسفي الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ص ٢٤. (د، ط)

المتخيل الذي لا وجود له على أي أرض<sup>(١١)</sup>.

كما نلمس نفس الرؤية في المعجم الفلسفي الذي أصدره مجمع اللغة العربية، اليوتوبيا "طوبياهي كل فكرة أو نظرية لا تتصل بالواقع أو لا يمكن تحقيقها أو مالا يعبر عن الواقع ويكون أشبه بالخيال"<sup>(١٢)</sup>.

ويعرفها الأستاذ عبده الحلو بقوله: "إنهانسيح خيالي لا وجود له في عالم الحقيقة؛ الطوباوي من يتصف بجموح الخيال والبعد عن الواقع."<sup>(١٣)</sup>

أما هيربرت ماركيوز ففي مفهومه لليوتوبيا يشير الى المقدمات التي تكمن وراء المشروع الايتوبي، والتي تكشف عن مشروعية الأمل الذي تطمح اليه: "لم يعد يفيد ما ليس ذا مكان في الكون التاريخي، بل أصبح يفيد ذلك الذي تمنعه قوة المجتمعات القائمة من رؤية النور، فالليوتوبيا تعبير عن المشروع الإنساني الذي يعاني الكبت والقسر الاجتماعي"<sup>(١٤)</sup>.

أما كارل مانهايم ١٨٩٣ عالم الاجتماع النمساوي الأصل، صاحب كتاب الايدولوجيا والليوتوبيا: "الحالة الفكرية الطوباوية، تكون عندما نخالف حالة الواقع الذي تظهر فيه وتتجاوزها، ولا نعتبرها كذلك، ولا نعتبرها كذلك إلا إذا نرعت مروراً بالعمل نحو تحطيم نظام الأوضاع القائمة المسيطر في هذا العهد تحطيماً جزئياً أو كلياً..."<sup>(١٥)</sup>.

الخلفية التي اعتمدت في التصنيف هي المشكلة وليست المسألة في اليوتوبيا، فالليوتوبيا بناء اجتماعي مثالي خال من العنف والظلم والتملك

نص الكتاب، إذ نجده يترجم الكتاب الى طوبيا والطوباويين، والاصوب هو ايتوبيا والايوتوبيين.

أما "خوسيه ميغيل بويرطا فيجد أن كلمة طوباوية الاسلامية مناسبة في تعريب الكلمة، لأن دلالة كلمة ايتوبيا كمكان غير موجود، ونموذجي يتقاطع مع الأمكنة السعيدة، فهي أي الطوباوية: "تدل عند هم أيضا على الامكنة الممتعة وعن اللاموجود او غير المدرك بالحواس"<sup>(٧)</sup>.

ويعتقد البعض من المتخصصين في اليوتوبيا أنها ترجمة غير مناسبة، لأن اليوتوبيا هي الأين الذي لا أين له أو مدينة غير موجودة في أي مكان، أما الطوبي فهي ارض السعادة، ويستند على وجوب التفرقة بين كلمة: utopia وكلمة eutopia<sup>(٨)</sup>.

في كتاب قصة الليوتوبيا يذهب لويس ممفورد: The Story of Utopias (Lewis Memford) الى تصنيفها الى يوتوبيا الهروب تترك العالم الخارجي كما هو، ويوتوبيا إعادة البناء تسعى إلى تغيير الواقع حتى يستطيع الفرد التعامل معه حسب أهدافه، فالأولى تدعو الفرد إلى بناء قلاع في الهواء والثانية تدعوه إلى أن يستشير مهندسا معماريا وبناءً حتى يتمكن من بناء منزل يحقق له حاجاته الأساسية<sup>(٩)</sup>.

وعليه فإن التعريفات التي تنظر إلى اليوتوبيا على أنها هروب وخيال تكون محكومو بمنظومة قيمية وايدولوجية مثل تعريف "بول فولكويه" الذي مانصه: "اليوتوبيا مشروع أو حلم بمجتمع أو الحلم بمستقبل خيالي ومرغوب فيه"<sup>(١٠)</sup>، وتعريف عبد المنعم الحفني: "مجرد فرضيات وتخيلات لا تمت بصلة إلى الواقع فعند اليوتوبيا هي المكان

١١- عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مديولي، القاهرة، ط ٢٠٠٠، حرف الطاء.

١٢- مجموعة من المؤلفين، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٨٢، ص: ١١٢ (د. ط)

١٣- عبده الحلو، معجم المصطلحات الفلسفية، المركز التربوي للبحوث والإنماء، لبنان، ط/ ١/ ١٩٩٤، حرف الطاء.

١٤- هيربارت ماركيوز، نحو ثورة جديدة، ترعيد اللطيف شرارة، دار العودة، لبنان ١٩٧١، ص: ١٨٠ (د. ط)

١٥- عبد اللطيف عبادة، اجتماعية المعرفة الفلسفية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص: ١١٠ (د. ط)

٧- خوسيه ميغيل بويرطا، البنية الطوباوية لتصور الحمراء، مرجع سابق، ص: ٥.

٨- عبدالعزيز لبيب، الايتوبيا والايوتوبيات، مجلة فضول، العدد ٤-٣ المجلد السابع، ١٩٨٧، ص ١٢٤.

٩- محمد لبيب النجيمي، مقدمة في فلسفة التربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٧، ص: ٦١.

10-P. foulquié. Dictionnaire de la langue philosophique p. u.f.3eme édition 1978 ,paris PP-746-747

الحكمة، المقابلة لعالم الجنون الذي يعيشه البشر في مكانهم الوهمي، والذي يتم من خلال رفض وتجاوز العقل الجمعي وآياته في مخيال المكان، ووهمية المكان المبني من خلال الذهن أطروحة تبنتها المدرسة اللامادية بزيادة جورج بيركلي George Berkeley، إذ نلمس الصورة الاشكالية لمخيال المكان من مسائل الفلسفة التقليدية، فتصورات المكان هي الاصل والوثيقة المرجعية لكثير من الحقائق البشرية، والأمل عند توماس مور يكمن في بناء عالم جديد ايتوبيا كمدنية تجسد الحكمة في مقابل الحكمة المجنونة التي تملك السلطة، بشتى صورها الضاغطة على الذات ذات الفرد وذات الجماعة، وتبقى الايتوبيا تطرح على مستوى البحث كثيرا من الإشكالات، الفلسفية والسياسية والدينية.. فهي تدفع الباحث الى إعادة ترتيب آليات القراءة، فهي فن وتأسيس للكتابة الرمزية.

## ٢. الايتوبيا وأفاق العنوان:

الفضاء التأويلي الذي تحمله النصوص يضع المتلقي أمام متاهة فكرية يعيش فيها مع التصورات والأفكار أثناء القراءة لحظة تشظ على مستوى الفهم، ويعاين بعين التأمل مبدأ التوازي الحاكم على كثير من بواطن النصوص، وقد كانت السمة والبعد اللانهائي لنسبة الاحتمالات التي يوضع الفهم فيها خلف كثير من المباحث الجديدة، والتي اقتضتها التعددية المنهجية، او المنهجية التداخلية المتعددة الاختصاصات La Méthode Pluridiscipline التي تتبع من عمق الدراسات الانسانية.

نظرية العنوان من اساليب الفكر الجديدة التي فتحت امام الباحث كثيرا من المغالقات الفكرية التي كانت تحجب المعاني واللطائف الحقيقية عنه في المجال الموضوعي، ومجال الذات، وهي عبر دراساتها تهدف الى مساعدة القارئ في سبر واكتناه المعاني والدلالات المستبطنة داخل النص، فهو أي العنوان.. في نظريات النص الحديثة عتبة قرائية، وعنصر من العناصر الموازية التي يسهم

إلى درجة تجعل إمكانية تحقيقه على أرض الواقع صعبة، ويبقى تعلق إمكانية التحقق للمشاريع المثالية مأخذا على اليوتوبيا، في حين أن العيب هو في تقاعس الإنسان عن مواكبة المشروع، فالـيوتوبيا صنف معلن ومصرح به وهي منذ البداية صنف أدبي كما يقرر "ريكور" أما الإيديولوجية فهي غير معلنه بطبيعتها<sup>(١٦)</sup>.

ولكن الارهاص الطوباوي لا يقف عن التطلع رغم العوائق، والحواجز المقامة من طرف الانظمة الشمولية، فسمي الإنسان إلى وضع مشاريع مستقبلية وبناء مجتمعات يوتوبية، مثل يوتوبيا المجتمع الشيوعي، ويوتوبيا المجتمع الرأسمالي، ويوتوبيا العولة.. مسألة مطلقة في الطبيعة البشرية، فالـيوتوبيا حسب جورج أرويل هي الحلم بمجتمع عادل يبدو أنه ينتاب الخيال الإنساني ويعاوده باستمرار، على نحو لا يمكن اجتثائه أو استئصاله في مختلف العصور، سواء سمي بملكوت السماء أو المجتمع اللاطقي، أو العصر الذهبي الذي وجد ذاته مرة في الزمان السحيق، وانحرفنا أو تكبنا سبيله).

تقدّر عدد اليوتوبيات بحوالي ألف ونيف كتاب في اليوتوبيا والديستوبيا "distopie"، فهي على حد تعبير الأستاذ فاروق سعد تصاميم ذهنية مادية ومعنوية لمنشآت وأنظمة نموذجية، وقيم حضارية، مثالية، غايتها تحقيق الكفاية والعدالة والسلام والسعادة للمخلوقات، يبتكرها الفكر الإنساني ويحيط بها بأجواء من الخيال الجامح والغموض الساحر، والرمز المشوق موحيا بأن العالم الموصوف هو عالم واقعي موجود بالفعل<sup>(١٧)</sup>.

إذن الغاية المحركة والمتخفية في النص الايتوبي هي البحث عن الحكمة، والمكان المثال أو المطلوب في المكان الجديد هو إقامة الوجود الاجتماعي على

١٦- بول ريكور، محاضرات في الايدولوجيا واليوتوبيا، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ ص: ٣٦١.

١٧- فاروق سعد، مع الفارابي والمدن الفاضلة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص: ٧٧.

السور القرآنية، وقد تم الاعتماد على معايير علمية في التصنيف مثل وضع العناوين المتعلقة بقضايا طبيعية جامدة أو حية مثل سورة الرعد أو سورة النمل، ضمن مجموعة معينة، والعناوين المتعلقة بسير الانبياء في زمرة التاريخ، مثل سورة نوح "عليه السلام"، يوسف "عليه السلام"، الانبياء وكانت النتائج المستخلصة من خلال المقارنة والتحليل ان المسائل الطبيعية أخذت من السور القرآنية ما يقدر بـ ٣٢ سورة... كما أكدت النتائج الاحصائية الطابع العلمي للقرآن الكريم، اما السور المتضمنة لمسائل العبادات والشعائر الدينية فتقدر بسورتين<sup>(١٩)</sup> ومنه نستخلص أن المنحى العلمي والتفكري "التأملي" سنجية أصلية في الاسلام النموذجي والأصيل، وليس في الفكر الديني، ومشروع الاستاذ محمد أركون قائماً على إمارة اللثام وحجاب الجهل عن هذه المسألة بالذات مسألة الوصل الدلالي بين الدين والفكر الديني .

نظرية العنوان تبدو ضرورة بحثية، ومنهجية في كشف الأبعاد والمرامي التي يتضمنها الكتاب، وغالبا ما تكون الرسائل المبعوثة مشفرة، لأن أزمة الوعي عند المفكر تمارس كسلطة قسرية على قدرة الكتابة لديه، فيعمل الوعي الظاهري على مقاومة إغراءات الباطن المتكررة بالتستر، وإخفاء الكثير من الرسائل، ولذا ستكون هذه الدراسة مجرد محاولة في قراءة بعض الأبعاد التي تضمنها كتاب "أيتوبيا" لتوماس مور، إذ تضعنا أيتوبيا أمام استشكال أولي يبدأ برمزية الدال، كمجموعة من الوحدات الصوتية، المحكومة بنظام صريفي ونحوي "فونيم وصرافم"، وبمدلول كمتصور ذهني ناتج عن وقع الفونيمات على طبلة الاذن، فهو انطولوجيا يفتقر الى هوية دال، أي الى استقلالية في البناء الصوتي للكلمة، فهو دال مركب من لفظتين ou وتعني اللا و topos: المكان.

نبدأ البحث في آفاق الجزء الاول من الاصطلاح

في تلقي النصوص، وفهمها، وتأويلها داخل فعل قرائي شمولي، يفعل العلاقات الكائنة والممكنة بينهما<sup>(١٨)</sup>.

مكنت النتائج المستخلصة في ميدان نظرية العنوان في الفضاءات الفكرية، ومنها الدراسات القرآنية، والتي لا زالت تترنح بين سلطة الماضي، أو ما يصطلح عليه بالسلفية التراثية، وبين سلطة الحداثة الغربية، التي سلبت ببهرجها عقل الشرقي المطبوع على الافتتان بكل ماهو جميل سواء على مستوى الشكل أو المضمون، الباحث الموضوعي في مسائل التراث الاسلامي من تجاوز العوائق الذاتية والموضوعية، والمفروضة على عملية البحث. فبعدها كانت الدلالات الدقيقة لأي القرآن الكريم عصية على الاحاطة من طرف القارئ، ومحجوبة عنه على قاعدة التعلق المغروس في الجبلة الانسانية بالطبيعة المادية، او ما يصطلح عليه في السياق العقائدي بالحياة الدنيا، أصبحت من خلال نظرية العنوان ممكنة الإدراك، إذا أن إمكانية القراءة او الفهم لرمزية العناوين يكشف عن القدرة على اكتناه الرسائل التي تقدمها السلطة المتعالية، فعناوين السور تساعد القارئ على إمارة اللثام عن بعض لحاظ الآي الكريم، مع الاحتفاظ بالدلالة القطعية التي يحملها المعنى الظاهر في الآية "إلا الراسخون في العلم"، والتي تضع التأويل الانساني أمام النخبة الفكرية التي ارتضاها الله لحمل حكمته المتعالية محل مراجعة، وأمام محك التصادم والصراع التأويلي، والذي انحرف عن مساره الطبيعي الذي هو الاثراء، الى وضعيته الدنيا التي تأخذ عنوانا مميزا الاهو: "سفك الدماء"، وسنستأنس ببعض المحاولات الاجتماعية في استثمار نظرية العنوان.

اعتمد بعض الباحثين في الحقل الاجتماعي، خصوصا المهتمين بعلم الاجتماع الديني آليات نظرية العنوان المنهجية في دراسة القران الكريم، من خلال تفكيك معاني العناوين التي أخذتها

١٩- علي شريعتي، الامة والامامة، ترجمة ابوعلي، مؤسسة الكتاب الثقافية، ص: ١٩.

١٨- محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، منشورات الاختلاف، الجزائر الطبعة الاولى ٢٠١٢، ص ١٥.



رواد الفكر الاسلامي، فالقول بعجز المؤمن عن التشبه او الاقتراب سلوكيا من الرسول محمد "ص" ليس إلا تكريسا بقبول الواقع السلوكي والاخلاقي الرديء الذي لازلنا نستحم فيه يوميا، فإمكانية تحقيق ايتوبيا ارضية مسألة بديهية، لأن في انكارها انكار للجميع المشاريع الدينية.

### ٣. الايتوبيا والمكان:

التعاطي الفلسفي مع المكان كمكون لفظي ثان في الكلمة يضعه امام تجاذبات متباينة من حيث الطبيعة، ومن حيث الغاية فالمفهوم الذي يحمل عليه المكان في الفيزياء يغير الدلالة الممنوحة له في حقل الرياضيات، فهو في الحقل الأول يملك أبعادا حسية محددة: طول، عرض، ارتفاع، بروز. والسنخية الطبيعية مأثر للتصور عن الاستعمال الذي يأخذ المفهوم في الرياضيات، فهو مكان مجرد ومنتوج ذهني يبده العقل، بمنح تمثلات ذهنية خطوط، مستقيمات.. لاتمت الى الواقع الحسي بأية صلة، وفي الحين نفسه تنطبق بشكل عجيب وغريب على هذا الواقع إذا جاز الاستئناس بعبارة البرت اينشتين.

أما المكان الاجتماعي، أو مايمكن التعبير عنه بالمخيال الرهطي للمكان، الذي هو بالأصل نتاج للمقصود من المكان في فلسفة الايتوبيا، كمجموعة من التصورات، والأنظمة المعرفية المتوارثة التي كانت من حيث المبدأ مواكبة لطبيعتها المتغيرة، والارتكان الى التسليم بها عند الجماعة يؤسس لمطلقية هذه الأحكام، فالنظرة الى المكان والى المتمكن أساس التصادم بين بني البشر، من حيث تجذير الارتباط العاطفي مع المكان، والفلسفات السياسية تضع المكان الظاهر كركن مادي رئيس في تأسيس المجتمع المدني للدولة، كما يكون باطن المكان كثرة اقتصادية منطلق الصراع بين الدول، وموضوعة استراتيجية في استيلاب الشعوب أو الامم، وعليه نجد أن الايتوبيا المورية، محاولة نقدية للموروث الثقالي الذي كان سائدا في مجتمعه بشكل عام، وفلسفة المكان بوجه أخص، وقصة توماس مور مع الملك هنري الثامن، والتي كانت سببا لإعدامه تؤكد

ألا وهو اللا الذي يشير الى الرفض، والرغبة في التجاوز، إذ تعكس فلسفة الرفض التوجه النقدي، والذي يترجم أحيانا بفلسفة اللا La Philosophie du Non، والرفض المتضمن في العلامة "لا" هو فعل وممارسة، وليس تصوّرا سكونيا للعدمية، التي تمنح الكلمة بعدا انطولوجيا فـ "اللا" كعلامة تستبطن مجموعة من العناصر تكون أو تشكل الطرف الأول في معادلة الرفض، وهي الفرد أو الجماعة في سياقها العام أو الجماعة في الصورة المؤدوجة، والتي تكون كمؤسسة رافضة تمارس فعل التعالي، أو الاستياء من وضع قد يكون موضوعيا أو ذاتيا، وهو مايكون ممثلا في الجزء الثاني من العلامة، والذي هو المكان "topos".

أخذ الرفض عبر مسار الفكر الانساني صورا متعددة ومتباينة، والموقف الديني كمخاض فكري على قاعدة افتراض اجتماعية الدين يقوم على لحظة الرفض التي يعايشها الانسان في واقعه السكوني، والذي يكون بطبيعته السكونية تلك جزءا من ماهيته، وعائقا أمام طبيعته أيضا، لأن السنخية الانسانية تتأرجح بين السكون وبين الحركة نحو الافق المستقبلي، والمنظومات المعرفية التي عرفتها البشرية من دين، وتفكير ديني الى نظريات فلسفية، وعلمية تبدأ كلها من لحظة الرفض والتجاوز، او من كلمة "لا" فتاريخ الفلسفة بدأ بقول: كلمة لا للمألوف لا للمعتقدات او الحقائق المبنية، فالحركة نحو الافق مع "اللا" وليس مع "ال نعم"، لأن الموقف الثاني استسلامي بالروح والماهية، فالحظة السقراطية في تاريخ الفلسفة تمثيل لمشروع ايطوبي سعى فيه سقراط الى إعادة بناء الحلم الانساني، أو المطلوب من الوجود خلال الوجود، فالحقيقة داخل الفرد، وليست تلك الحقيقة الجاهزة المؤسسة من طرف السلطة الموضوعية وكذلك الحال بالنسبة في المشروع الديني، حيث نجد المشروع المحمدي من خلال النقد والتجاوز بسير نحو عالم ايتوبي على أرض الواقع، قبل العالم الاخروي، أما الخلط بين الايتوبيا الارضية في الاسلام، والايوتوبيا الملكتوتية، ليس إلا نتاجا لالتباسات فكرية ولغوية وقع فيها

هذه النزعة الراضة للموروث السائد.

لأصالة افلاطون، وللصعوبات التي اعترضت افلاطون، والتي كلفته حريته، وأخطر شيء في نظر أفلاطون هو المخيال، إذ يشير في الرسالة السابعة اثناء اقامته في سراقوسة، حينما اراد معرفة تأثير الفلسفة في قلب دنيس، فوجد ان الحاكم لطاغية كان قد ألف لنفسه نوعا من الافلاطونية المليئة بافكار مفهومة بشكل سيء: "علمت ان دنيس الف بنفسه مكتوبا مما سمعه من فمي".

#### ٤. كيف نقرأ الايتوبيا؟

يضعنا السؤال أمام لحظة مراجعة لجميع القراءات التي أخضعت لها الايتوبيا، فهي عند المدرسة الاشتراكية مشروع سياسي حالم وحامل لمشروع مجتمع فاضل ونموذجي، وبدليل للظروف الاجتماعية السيئة، وتأسيس نظري لوهم الرأسمالية، فهي فضاء التحرر من كل مظاهر الاستيلاء، وتقعيد لأطروحة الفلسفة الماركسية، فتوماس مور أب الاشتراكية الطوباوية التي تمثل المرحلة الابتدائية للنظرية الاشتراكية، ولذا نجد الحزب الشيوعي الحاكم في الاتحاد السوفياتي يقيم تذكارا رمزيا لتوماس مور، وفي المقابل نجد اليوتوبيا عند كثير من الباحثين كلياوية مسترة، ومضمرة.

يبدو أن أغلب هذه المواقف، أو القراءات تنطلق من محطة ذاتية قيمة، تسقط فيها ارهاصاتها، وحمولتها الثقافية على النص الايتوبي، حيث يجد الباحث في طبيعة النصّ الإنساني الأدلوجة ظاهرة أو مضمرة سياسية كانت أو إجتماعية داخل القراءة اليوتوبية، وتصنيف نماذج القراءات التي أخضعت لها الايتوبيا الى قراءات واقعية وقراءات مجازية لا يجانب الصواب، إذ نلمس في القراءة الواقعية للايتوبيا المورية اسقاطا للدلوجة على النص، حيث حجز السوفيات مكانا لتوماس مور في مدفن عظماء الثورة وسجّل اسمه على نصب تذكاري في الساحة الحمراء بموسكو، وهي نموذج حي لقراءة واقعية أسقط فيها الفكر تصوراته ورؤيته الكونية على هذا النمط الادبي، أما القراءة الواقعية الثانية فتظهر في تطويب توماس مور من

المكان في الاطروحة المورية بناء ذهني وعقلي في آن واحد، والفرق المقصود بينهما يظهر في تقاطع الذهني مع الوهمي أحيانا، أما العقلي فغالبا مايكون ساميا على القوة الوهمية، وإن كان الحضور العاطفي في ماهو عقلي ظاهرا في كثير من الفنون اللغوية مثل الأدب، فالمكان إنتاج الحكمة لعالم حكيم من طرف حكيم، كما يمكن قراءة الأفاق التي تستبطنها الايتوبيا كاصطلاح وكلون أدبي جديد على قاعدة ارتباطها بفكرة اكتشاف العالم الجديد، فأدب الرحلات وإن كان قديما على ظاهرة اكتشاف العالم الجديد، فتصور المكان الايتوبي على شكل جزيرة يتضمن محاكاة للجنين الذي يعيش في عالم الرحم، فهو ببراءته أصل الحياة، ومرجع الحياة السعيدة، فالادب الايتوبي يضع المكان النموذج خارج المعطيات المكانية والامكانية التي يقدمها المعيش، فهو إبداع وتأسيس نظري وفلسفي، وليس معطى الواقع، فالنتعالي على العادات والارتباطات الاجتماعية مع المكان، ضرورة للارتقاء، وللحصول على مكان السعادة الاوتوبيا eutopia، والذي يتم من خلال الايتوبيا Utopie.

نجد في الكتاب الاول من ايتوبيا لتوماس مور الاشارة الى أهمية الحضور الفلسفي في الممارسة السياسية يقول مور: "يبدو لي انك ستتعلم ماهو جدير بهذه الروح الكريمة الفلسفية التي تتسم بها إذا دبرت حياتك بحيث تضع مقدرتك في خدمة الصالح العام، حتى ولو كان في ذلك ما يضيرك شخصيا بعض الشيء، وهذا ما لا يمكن ان تحققه بهذا القدر إلا إذا كنت مستشارا لملك عظيم." (٢٠)

الأمل في الفلسفة كمرجعية نظرية، وكأداة إجرائية في تغييرالوضع المعيش، من المسائل التقليدية في الانساق الفلسفية التقليدية، والمشروع الافلاطوني نموذج عالمي لهذه الدعوة، والسير توماس مور يلمح في الكتاب الاول من رواية ايتوبيا

٢٠- توماس مور، يوتوبيا، ترجمة انجيل بطرس سمعان، الهيبة المصرية العامة للكتاب، مص، ط: ٢ / ١٩٨٧، ص: ٩٨.

وستكون لنا وقفة مع بعض البيوتوبيات الدينية مثل مدينة الله للقديس أوغسطين، والمدينة الفاضلة عند الفارابي.

مدينة الله:

القراءة الأولية لعنوان الكتاب توحى بالمحتوى، فمدينة الله تصور يقرب التجمعات السياسية بالمفاهيم اللاهوتية، كما أن مدينة الله عبارة تكررت في العهد القديم والعهد الجديد، وليست تسمية جديدة، ففي العهد القديم وردت عبارة مدينة الله .. "نهراً سواقيه تفرح مدينة الله، مقدس مساكن العلي .. الله في وسطها ولن تتزعزع" (٢١)

وفي سفر طوبيا من العهد القديم نجد في الإصحاح ١٢ هذه العبارة: "يا أورشليم مدينة الله إن الرب أدبك بأعمال يدك .. أما في العهد الجديد فقد وردت في رسالة بولس الرسول الى العبرانيين (الإصحاح ١٢): "بل قد أتيتم الى جبل صهيون، وإلى مدينة الله الحي أورشليم السماوية..." (٢٢).

فمدينة الله تعبير عن الرؤيا المسيحية لحركة التاريخ، وهذا ما يؤكد كانتور حينما يقول "فلسفة التاريخ المسيحية تمثلت في كتاب مدينة الله لأوغسطين بشكل أساسي، وربما يكون هو أكبر عمل مؤثر في تاريخ الفكر المسيحي باستثناء الكتاب المقدس." (٢٣).

من هنا يتبين لنا أهمية الكتاب في الفكر المسيحي، فالدافع الى التأليف كان البحث عن سبب مسيحي لسقوط الإمبراطورية الرومانية، ولكن حاسته التاريخية كما يصطلح عليها المؤرخ كانتور دفعته الى دراسة التدوين التاريخي عند اليونان والرومان، ثم وجد نفسه ملزماً على نقد هذه الأساليب التدوينية للتاريخ .. والنظرة الأوغسطينية لفلسفة التاريخ تقوم على رفض

طرف الكاثوليك في عام ١٨٨٦، وجعله قديساً في عام ١٩٣٥، وستكون قراءتنا للنص الايتوبي مجرد توصيف، واستنطاق للنص من خلال مسح تاريخي للمسار الجينيولوجي لفكرة الايتوبيا.

٥. أنواع الايتوبيات:

قراءة الايتوبيا من خلال تصنيفها الى ايتوبيات Utopies، أو الى ايتوبيين Utopistes يطرح الكثير من المسائل الخلافية حول جنس النص الايتوبي، فقراءتها من خلال الأجناس الأدبية، تضعنا أمام تجاوز ايتوبي لسلطة المكان والزمان، فالتداخل والتخارج الموجود بين بعض الايتوبيات يطرح تساؤلاً أمام قدرة الايتوبيا على ممارسة هذا التجاوز، فما نلمسه في ادب الرحلات الذي عرفته جميع المجتمعات، والثقافات إحالته الى عصر التقنية الذي اكتسح فكر الانسان وثقافته مع عصر النهضة، وكذلك الحال نجده عند الايتوبيات الاجتماعية او المدنية، أي الباحثة عن نموذج تطبيقي للعدالة بعيداً عن الخيال والخيال، التي تحاكي جميعها جمهورية افلاطون، فالديمقراطية، والفضاء العمومي تعبير عن ايتوبيا جديدة أفرزتها مفارقات العصر النقني.

والتباين في القراءات يؤكد هذه الصعوبة، فالبعض يضع الايتوبيات في صنف الايديولوجيات القاتلة، والشمولية، والتي تغيب فيها الحرية الانسانية، في حين يجد فيها البعض المنبع الرئيس للنزعة الانسانية، وسنحاول قراءتها من خلال نوعية المضامين، وطبيعة المشاريع التي تأسست عليها، وهي:

١. اليوتوبيات الدينية:

وهي أقدم اليوتوبيات ظهوراً إذ تقوم على الربط بين الوسيلة والغاية والالتزام بالشريعة هو الوسيلة الإلهية التي يبلغ الإنسان بها الجنة، فهي عالم يوتوبي يسعى إليه كل المتدينين مثل كتاب الفيديا الهندوسي والأفيستا الزرادشتي .. وحتى الديانات السماوية تضع عالماً اليوتوبيا في قائمة المطالب والغايات الأخلاقية، وفي قائمة الحوافز والدوافع نحو الالتزام الأخلاقي والشرعي.

٢١- العهد القديم، سفر المزامير الإصحاح ٤٦.

٢٢- العهد الجديد، جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى القديم، بيروت، ١٩٦٤، ص: ٢٦٧.

٢٣- نورمان كانتو، التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، الطبعة الخامسة ١٩٩٧، ص: ١١٧.

أساس القيم الأخلاقية التي احتدم الصراع والجدل الكلامي حولها في جميع الثقافات، خصوصا الذين يعتقدون بنقلية أو سمعية القيم يجدون عند القديس أوغسطين الكثير من الحجج .. يقول: "إن الفضائل التي تعتقد النفس بامتلاكها وبفضلها تسيطر على الجسد وعلى الرذائل، هذه الفضائل هي في الواقع رذائل إذا ما ابتعدت النفس عن الله، ففي الواقع هي فضائل بحد ذاتها، إلا أن الفرور الذي يصيب النفس بابتعادها عن الله يحولها من فضائل الى رذائل .."

ومن بين الفضائل الأخلاقية فضيلة السلام القيمة التي يطلبها المواطن في المدينة ومن المجتمع المدني تقوم على نوعية وشكل العلاقة مع الله .. تعيس هو الشعب الذي يبتعد عن الله؛ فهو يحب السلام ولا مجال لرفضه، لكن هذا الشعب لا يملك السلام النهائي لأنه أساء استعمال هذا السلام... أما بالنسبة لسلامنا نحن على الأرض مع الله بالإيمان، وسيصبح في الأبدية معه بالرؤية ..)

ويمكن القول أن القديس أوغسطين يستحق عن جدارة أن يصنّف ضمن آباء الكنيسة، فعن طريقه انتقل الفكر القديم الى العصور الوسطى؛ فقد كانت كتاباته منبعاً زاخراً من الفكر نهل منه فيما بعد الكتاب الكاثوليكيون والبروتستانت (٢٦).

والغريب في الأمر أن كتابات هذا المفكر وظفت في عدة أوجه متباينة، فمنهم من يصنّفه ضمن أعمدة الفكر المسيحي ومنهم من يعتبره منظراً للاضطهاد، وهذه الدلالات المتغايرة عبر عنها الأستاذ توفيق الطويل بقوله: "ومن كتاباته في البر والتقوى والقضاء والقدر والأعمال الخيرية وغيرها، استمد البروتستانت أعظم أسلحتهم قوة وصلابة، وفي تزمته النظري عرف المذهب الكاثوليكي أخص مميزات .. وقد أخفى المتزمتون من أتباعهما

النظرة الدورية لحركة التاريخ وعدم القبول بإمكانية تكرار الحوادث التاريخية، فتجسد المسيح أي حياته على الأرض كانت حادثاً فريداً غير قابل للتكرار أبداً في التاريخ .." (٢٤)

فكتاب مدينة الله لأبيير عن وجهة نظر دينية للكون والحياة بل هو نظرة فلسفية تأسيسية للرؤيا التوحيدية المسيحية للكون ولل فرد وللتاريخ .

يؤسس مدينته او فلسفة الطوباوية على فلسفة الحب، والذي بشر به السيد المسيح عليه السلام، يقول: « حبان صنعا مدينتين، حب الذات حتى احتقار الله صنع المدينة الأرضية، وحب الله حتى احتقار الذات صنعا المدينة الإلهية .. فالأولى تبحث عن المجد لدى الناس، في حين أنه بالنسبة للثانية فإن الله هو شاهد على ضميرها، وهو مبدأ فخرها. " (٢٥)

فالحب ليس نجسا في طبيعته بل بالعرض، إذ يصبح أخلاقيا وضروريا إذا كان متعلق الحب موضوعيا وأخلاقيا، وتقديم الغير على الذات هو حب للإنسان وليس نكرانا للذات، يقول القديس أوغسطين: " .. نرى زعماءها زعماء مدينة الله الموجهين يندرون أنفسهم للمحبة .."

فالمواطن المسيحي إذن يؤمن في داخله أنه مدعو لأن يكون فردا أو عنصرا في مجتمع أكثر اتساعا من المجتمع البشري الذي ينتمي إليه بالفعل، وهذا المجتمع هو مجتمع العدل "مجتمع الفضيلة" أو الأشخاص العادلين الذين يتمتعون بسعادة أبدية، والذين يتألف منهم ملكوت السموات أو مدينة الله، والقيم الأخلاقية التي تبني عليها المواطنة، هي العمل وفق القانون "القاعدة الإلهية).

فالأخلاقي ليس ما يُقرره المجتمع أو الفرد أو الدولة بل الله هو الذي يمنح المشروعية الأخلاقية بالفعل، فتحديد القيم وتأسيسها يخضع لمقياس القرب أو الابتعاد عن الله وأعتقد أن إشكالية

٢٦- جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الجزء الثاني، ترجمة: حسن جلال العروسي، دار المعارف، مصر، ٩٦٩، ص: ٢٧٥. (د.ط.)

٢٤. المرجع نفسه، ص: ١٢١.

25-Saint augustin; la cite de dieu, Édition du seuil, Paris, 1994, p191.

التراتبية: "وكما أن العضو الرئيس في البدن هو بالطبع أكمل أعضائه، وأتمها في نفسه وفيما يخصه، وله من كل ما يشارك فيه عضو آخر أفضله، ودونه أيضا أعضاء أخرى رئيسة لما دونها، ورياستها دون رياسة الأول، وهي تحت رياسة الأول ترأس وترأس، كذلك رئيس المدينة هو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصه، وله من كل ما شارك فيه غيره أفضله. ودونه قوم مرؤوسون منه ويرأسون آخرين"

البنية التراتبية لمواطني المدينة عند الفارابي لا تحميها الإثنية أو الطائفية المذهبية، بل القدرة والقابلية والفعالية فهي تقوم على منظومة معرفية وقيمية، فالقاعدة المعرفية التي تشكل إيديولوجية الدولة، أو المدينة في الاصطلاح الحديث ينبغي أن تكون واحدة، ولكن مادامت الطبيعة أسست للفتاوت، فالمعرفة أيضا متفاوتة، فهناك "الحكام الذين يعرفون طبيعة الأشياء بالأدلة البرهانية وعن طريق استبصاراتهم الخاصة، وأتباع هؤلاء الذين يعرفون عن طريق براهين الفلاسفة ويقبلون بها، وبقية المواطنين الذي يعرفون عن طريق التشبيهات اعتمادا على منزلتهم كمواطنين"<sup>(٢٩)</sup>.

فهذه الدولة وإن كانت تتقاطع مع الدول التوتالتارية "الأنظمة الكلية" في البنية الهرمية، فإنها تختلف عنها في أساسها الأخلاقي، فمهمة الحاكم أو "المهنة الملكية على حد تعبير الفارابي أو ماشاء الإنسان أن يسميها بدل اسم الملك، والسياسة هي فعل هذه المهنة، وذلك أن تفعل الأفعال التي بها تمكن تلك السير وتلك الملكات في المدينة، والأمة وتحفظ عليهم وإنما تلتئم هذه المهنة بمعرفة جميع الأفعال التي بها يتأتى التمكين أولا والحفظ بعد ذلك."<sup>(٣٠)</sup>

فالغاية من الدولة تحقيق السعادة في الحياة الدنيا والأخرى، وأعتقد أن الفارابي هو أول من

٢٩- نيوشترانس، تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الأول، ترجمة محمود سيد احمد المجلس الأعلى للثقافة مصر، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، ص: ٣١.

٣٠- ابو نصر الفارابي، كتاب الملة، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩١، ص: ٥٤.

تعصبهم وراء اسم هذا القديس العظيم..<sup>(٣٧)</sup>

### مدينة الفارابي الفاضلة:

السمة العامة التي تطبع مدينة الفارابي الطوباوية بعدها المدني، والمتعلق بالهيكلية والخطة التنظيمية التي اقترحها في إدارة المدينة، أما الملمح الذي أعتدناه في ادراج الطوباوية الفارابية ضمن اليوتوبيات الدينية، هو اعتقاده في وجوب ارتباط السلطة الزمنية بالسلطة الروحية، والتي تظهر فيه القرابة الفكرية بين التصور الفلسفي عنده، واعتقاد المدرسة الامامية في السياسة، والتي تقع في مقابل مدرسة الصحابة مدرسة اهل السنة والجماعة.

يظهر البناء الهرمي للمواطنين عند الفارابي في المقاربة التي وضعها الفارابي بين بنية الجسد وبنية الدولة والتي يقول فيها: "والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح، الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان" والمقصود بها (الحياة)، وعلى حفظها عليه، وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة الفطرة والقوى، وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب، وأعضاؤه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس..)

تتميز مدينة الفارابي الطوباوية ببنية وتراتبية تناضلية في طبقات المواطنين، تتحدد وفقا للوظائف التي ليست محددة خارج طاقات، وقابليات المواطن، فقدرة المواطن هي التي تحدد الوظيفة، وليست الهيئة المسيرة هي التي تحدد، وأعتقد أن الفارابي يستحضر الآية الكريمة: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ..)<sup>(٣٨)</sup>

فالشارع يتقيد بالعدل والحكمة في توزيع الوظائف والمهام، وفي هذا النص نلمس هذه

٢٧- توفيق الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص: ٧١.

٢٨- سورة البقرة، الآية ٢٨٦

موجودا في وقت من الأوقات، ثم المدينة الفاضلة وأهلها والسعادة التي تصير بها أنفسهم، والمدن المضادة لها وما تؤول إليه أنفسهم بعد الموت...<sup>(٣٢)</sup>

ويؤكد الفارابي على الأساس الأخلاقي للإيديولوجية التي ينبغي أن تكون واحدة موحدة، فيقول في كتاب السياسة المدنية: "ويحتاج في كل واحد من أهل المدينة الفاضلة إلى أن يعرف مبادئ الموجودات القصوى ومراتبها، والسعادة، والرئاسة الأولى التي للمدينة الفاضلة ومراتب رئاستها. ثم من بعد ذلك الأفعال المحدودة التي إذا فعلت نيلت بها السعادة، وأن لا يقتصر على أن تعلم هذه الأفعال دون أن تعمل، ويؤخذ أهل المدينة (بفعلها))، من هنا يتبين أن الأيديولوجية التي يدعو الفارابي لتلقيها للمواطنين ليست إيديولوجية نمطية أو نسقية تفرض بالإكراه على المواطن، بل هي إيديولوجية مبنية على الحجة والبرهان لا على قول القائل الذي هو إنسان والمضروب في جبلته بضروب الخلل والنقصان على حد تعبير الحسن ابن الهيثم.

## ٢. إيتوبيا العلم:

العلم قوة، عبارة أسس بها فرانسيس بيكون، ملامح عصر جديد يتسم بالتجاوز، والرغبة في تحطيم كل منظومة لاهوتية أو ميتافيزيقية، تعمل على إعاقه الارتقاء، والتعاطي الإرادي مع ملكات العقل، وقد أحسن بيكون في توصيف هذه العوائق بمنظومة الأصنام أو الأوهام التي تحجب الحقيقة عن الحس المشترك، وعن مدعي المعرفة، والتي هي:

أوهام الكهف: ترجع بالأساس إلى مكونات الفرد البيولوجية كمزاجه وطبعه وإلى المكتسبات الثقافية وآرائه، ورغباته الذاتية التي تحول دون إدراكه الحقيقة، فيسجن نفسه داخلها بينما يطلب منه عكس ذلك تماما، والمطلوب من الإنسان، لأجل تقادي هذه الميول المغرصة، أن ينمي

تعرض للسعادة كقيمة في بعدها الأخروي أي بعد نهاية الحياة، في حين نجد أن جون لوك بعده يقول: "إن سلطة الدولة لا تتعلق إلا بالخيرات المدنية، وأنها مقصورة على رعاية شؤون هذه الدنيا، وأنه لا يحق لها أن تمس أي شيء يتعلق بالحياة الآخرة).

فالغاية من الدولة هي الالتزام بمسؤوليتها المدنية والقانونية إزاء الحقوق الطبيعية والوضعية للمواطن، وبمسؤوليتها الأخلاقية اتجاه آخرة المواطن، فمسؤولية الدولة عند الفارابي اتجاه المواطنين لا تقف عند حد الدنيا فقط بل تتجاوزها إلى مسؤوليتها عن مستقبل المواطن في مرحلة ما بعد الموت، وأعتقد أن الفكر السياسي الحديث والقديم لم يتعرض لهذه المسألة.

أما علاقة الإيديولوجية بالمواطنة، فليست بالأمر الجديد في نسق الفارابي، حيث نلمس أن وحدة المحتوى المعرفي تساهم في توحيد التوجه لدى جميع المواطنين، وهي من مهام الرئيس التربوية في المدينة، فالفارابي على حد تعبير الأستاذ محمد عبد المعز نصر أقرب إلى أصحاب الإيديولوجيات اليمينية واليسارية في عصرنا الحاضر ممن يؤكدون وجوب ملء رؤوس المواطنين ملئا إيديولوجيا متشابهة، حتى يكون التجاوب كاملا بين الزعيم وشعبه، وتكون الاستجابة أقرب إلى الآلية بين أوامر القائد وطاعة المواطنين<sup>(٣٣)</sup>

يحدد الفارابي المحتوى المعرفي للإيديولوجية في مبادئ أولها: الرؤية الانطولوجية للكون، ثم الوعي السياسي بدستور الدولة المنظم لأنساقها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتنفيذية، وفعوى النص يبين ذلك: "فأما الأشياء المشتركة التي ينبغي أن يعلمها أهل المدينة الفاضلة فهي أشياء، أولها معرفة السبب الأول وجميع ما يوصف به... ثم الرئيس الأول وكيف يكون الوحي، ثم الرؤساء الذين ينبغي أن يخلفونه إذا لم يكن

٣٢- أبو نصر الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تعليق ألبير نصري نادر، دار المشرق، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٨، ص: ١٤٦.

٣٣- مجموعة مؤلفين، أبو نصر الفارابي في الذكرى الألفية لوفاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ص: ٢٥٤.

برهان<sup>(٣٦)</sup>. وهكذا فليست الأوهام مجرد أخطاء أو مزالق يقع فيها الناس دون قصد أو شعور، بل هي أصلية في العقل، داخلية في تشكيله، و جزء من تركيبه.

أوهام القبيلة: تعود «للنقص الطبيعي الموجود في العقل الإنساني ذاته، أي في تركيبه الناقص المشوه لطبيعة الأشياء و ألوانها<sup>(٣٧)</sup>. أي أن العقل يتوهم معرفة الظواهر و إدراكها مباشرة و لأول وهلة يقع نظره عليها، فيعتبر الانطباع الأولي الذي انطبع في ذهنه هو التفسير الحقيقي، بينما هو في الأصل مجرد انطباع حسي أولي خادع.

قدّم بيكون مشروعه المدني، بتأسيس أرضية علمية لمجتمع تقني تتجاوز فيه الأوهام في كتابه "أطلنطس الجديدة" إيتوبيا فرانسيس بيكون، الحلم بتأسيس المجمع أو الهيئة العلمية العالمية، المؤسسة التي تتكفل بمسألة البحث العلمي، والمشاريع التقنية الهادفة الى الارتقاء بملكات الانسان، والانتقال بها من عالم الامكان الى عالم المكان، وقد أقام بيكون المؤسسة في مدينة بن سالم، التي يعمل علماءها على الجّد في اقتناص، وصيد المعارف، وتضم هيئة علمية تعمل على البحث العلمي، وتفعيل الاختراع، لأن الحياة النموذجية لا تتحقق إلا بالعلم والتقنية، فالنزوع الى الاستقرار، والبحث عن السعادة، أصل فطري في الطبيعة الانسانية، وليس وضعية ثانوية، فالانسان الصانع وجد قبل الانسان الحكيم، لان الكمال الانساني الحاصل بواسطة التقنية لا يحتاج الى إثبات، وإن كانت المساوئ المترتبة عن توظيف التقنية لا تعد ولا تحصى، ولكن مرجعية السلب الذي الحق بالتقنية تعود الى طفيان الذات بحمولتها الغرائزية في استثمارها، وأمثلة "بروميثيوس Prométhé" تستبطن رغبة الانسان في الحصول على التقنية لتحقيق السعادة المنشودة، لأن اكتشاف النار لحظة تحوّل وانتقال

قدراته الذهنية على إخضاع آرائه وأمانيه للنقد الموضوعي، و احترام الأشياء كما توجد في الواقع. يقول العالم الانجليزي توماس هكسلي: "إن مهمتي هي تدريب أمني على التكيف مع الواقع، لا محاولة تنسيق الوقائع حسب هذه الأمانى، وعلى الإنسان أن يجلس بين يدي الواقع كطفل صغير، وأن يكون على استعداد للتخلي عن جميع الأفكار السابقة وأن يتبع الطبيعة بتواضع حينما تقوده، وإلا فلن يتعلم شيئاً"<sup>(٣٨)</sup>.

وهام السوق: تنشأ هذه الأخطاء والخداع عن الاستعمال الفردي والسيئ للألفاظ التي يستعملها كل منهم بطريقته، "وسميت بأوهام السوق لأن الناس متى اجتمعت كما تجتمع في الأسواق، لا تملك أداة واحدة مشتركة لتبادل الأفكار"<sup>(٣٩)</sup>.

وهذا ما عبّر عنه برغسون عندما أشار إلى أن اللغة ليست دائماً أداة طيّبة وصادقة في نقل أفكارنا، فيقول: "ولكن في أغلب الأحيان، إننا لا ندرك من حالتنا النفسية إلا انتشارها الخارجي، إننا لا ندرك من أحاسيسنا إلا مظهرها اللاشخصي، المظهر الذي سجله الكلام، مرة واحدة وأخيرة، لأنه تقريبا، هو ذاته، في نفس الظروف، بالنسبة إلى كل الناس، وهكذا، وحتى في ذاتنا الفردية، تهرب منا ذاتيتنا"<sup>(٤٠)</sup>. فاللغة التي تعتبر عادة أداة اتصال و تواصل وإبانة عن الأشياء، كثيرا ما تكون عائقا أمام ذلك.

أوهام المسرح: تنشأ مما تتخذه النظريات والمذاهب الفلسفية والآراء المتوارثة عن الفلاسفة من مقام ونفوذ، فيتلقاها الناس عن الفلاسفة أو عن أصحابها كما يتلقى المشاهدون في المسرح أقوال الممثلين وكأنها تنزل عليهم من عل، وهم يتلقونها ويتقبلونها دون أي فحص أو نقد أو

٣٢- و.أ.ب. بيبريدج، فن البحث العلمي، ترجمة زكريا فهمي، دار أقرأ، بيروت، ط٥، ١٩٦٨، ص: ٨٩.

٣٤- محمود فهمي زيدان، الاستقرار والمنهج العلمي، دار الجامعات المصرية. الإسكندرية، ١٩٧٧، ص ٦٤.

٣٥- هنري برغسون، الضحك، ترجمة علي مقلد، مرجع سابق، ص ١٠٢.

36- Bertrand vergely, le dico de la philosophie, ED, Milan Toulouse, 1998, p.79.

٣٧- حبيب الشاروني، فلسفة فرانسيس بيكون، مطبعة النجاح الجديدة، (المغرب) ط١ / ١٩٨١ ص ٥٥.

كما أن انتقاده لأرسطو جعل من فعله جريمة لا تغتفر في عرف الكنيسة آنذاك، فاتهم من خلالها بالزندقة والهرطقة، كما أنه شارك في المؤامرة لطرده المحتلين الأسبان، أما العوامل الدينية فهي إيمانه واعتقاده القوي في الخوارق والتنجيم الذي هو نوع معرفي غير مقبول من طرف المؤسسات الدينية لحد الساعة، كما أن التأثر بالمفكر أو المنجم نوستراداموس ١٥٦٦/١٥٠٣ يبدو جلياً في عقيدته وفي تصوراته السياسيّة في كتاب مدينة الشمس وما يمكننا قوله أن الاعتقاد بأفكار حرة تجاوزية للواقع السائد تشكل مشكلة فالمعاناة الفكرية والوجدانية التي يعيشها المبدع الحريفي عصر الظلامية، لا يمكن إدراكها بنفس التجربة التي كان يعايشها صاحبها.

#### ٤. الايتوبيا المدنية:

المشروع الذي تتبناه اليوتوبيات التقنية هو الرقي، والعمل على رفع المستوى الإنساني، فردياً وجماعياً، وعليه كانت المشاريع اليوتوبية المدنية نموذجاً رئيسياً في المشروع الطوباوي، إذ نلاحظ التقاطع بينها في المسألة، والفرق بينها يكمن في قول البعض بأولوية التغيير المدني في مشاريعهم السياسية والفلسفية، وما يميّز الايتوبيا الاجتماعية أو المدنية بشكل عام الاعتقاد بأن مصدر الفساد المدني كامن في الغلط الفكري، وفي سيادة الأهواء على ملكة العقل، فالانحراف الفكري مرجع الإدارة السيئة، والمجانبة لقيم الإنسانية، فكهدف الحياة المعاشة بكل حيثياته لا يستطيع الارتقاء الى رواق الحكمة الفلسفية المتعالية، فالأيتوبيات المدنية تقدّم حلولاً خارج التاريخ الإنساني، ومستقلاً كلية عن تاريخ الإنسانية، لأن التاريخ هو تاريخ أخطاء، وهذا ما نلمس مثيلاً له عند الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار، ولكن الإسقاط الذي قدمه باشلار كان الحقل العلمي، أمّا الطوباويون فكانت الحياة المدنية فضاء لهذه الأخطاء، ولذا نلاحظ داخل التصور الطوباوي تخيل أمكنة متخيلة جزر أبحار، ونائية لم يلمسها الإنسان بيده، ولا يفكره، كما ارتبطت التصورات الطوباوية بلحظات الانحطاط،

من مستوى البدائية الى مقام التحضر الإنساني، فأهمّ خاصية مميزة للمكان المعيش هي النقصان، أما المكان المتخيّل فهو عالم يتسم بالكمال، والمعبر الذي ينقل المكان من عالم النقصان الى عالم الكمال هو التقنية التي جسّدها، ومثلها الانسان بتضحية بروميثيوس، الرمز والملاك الأعلى الذي يضع المصلحة الإنسانية فوق كل اعتبار.

#### ٣. ايتوبيا التقنية:

التقنية كمطلب حضاري، وإنساني مخاض، وتجسيد فعلي لعملية التفلسف، وقد كان غاليلي المرجع الرئيس لجل النظريات الفلسفية التي تهدف الى تجسيد حلم السعادة الارضي للبشرية من خلال التقنية، وأهم الايتوبيات التقنية يوتوبيا شارل فورييه ويوتوبيا "مدينة الشمس" للراهب تومازو كامبانيلا، والذي يجعل من الشمس مركزاً رئيساً لفلسفة المكان، والمحرك البديل لمركزية الأرض، فكانت اليوتوبيات التقنية تعبيراً عن سداجة نظرية المكان التقليديّة.

تقوم فلسفة كامبانيلا على ثلاثة مبادئ أولاً اعتبار الفلسفة أداة التجديد للضمير الإنساني، بكل دلالاتها الأخلاقية والدينية، ثانياً الوجود السياسي يتمركز حول ثلاثية فلسفية هي السلطة، الحب والحكمة، ثالثاً الدولة المثالية هي تلك المدينة التي يمكن أن توصف بأنها جمهورية، يسيطر فيها مبدأ النوعية على جميع عناصر الوجود الاجتماعي، فهو على حد تعبير الأستاذة عطيات أبو السعود من أوائل المناهضين لفلسفة أرسطو، وللعلم المدرسي.. الذي ساد الفكر الأوروبي في العصر الوسيط، كما أخذ بالنظام التراتبي للوجودات والموجودات الذي كان سائداً في العصور الوسطى..<sup>(٢٨)</sup>.

ويمكن القول أن العوامل الكامنة وراء كتابة "مدينة الشمس" هي العوامل السياسيّة إذ أن معاناته وشعوره بالاستلاب، وغياب حق الحرية في المجتمع السياسي أو المدني، كانت من وراء التفكير في الكتاب الذي كان مشروع إصلاح سياسي،

٢٨- عطيات أبو السعود، الامل واليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ،



الحراس والجنود الذين خلقوا من ذراعيه، وطبقة الحرفيين الذين خلقوا من ساقيه، وطبقة الأرقاء من قدميه، تقترب بعض الشيء من التقسيم الأفلاطوني، كما يظهر البعد العملي عند أفلاطون في تأسيسه للأكاديمية الذي تولى مهمة تربية الفلاسفة وتخريج الحكام منها، فلم يكن كما يعتقد البعض رجلاً حالمًا بل فيلسوفًا بحق وبتحقيق يعبر عن نفسه "والآن ألا توافقني على أن خطة دولتنا ودستورنا ليس محض أوهاام وأنه إذا كان تحقيقها صعباً فهو ممكن؟" (٤٢).

تقوم العدالة في نظر أفلاطون في قيام المجتمع النموذجي، والذي يبنى على أساس الطبقيّة والتفاوت الاجتماعي، لأن النظرة الموضوعية والمنصفة تقرّ بالطبقيّة أو بالتراتبية داخل المجتمع فالاختلاف مسألة طبيعية لا ينكرها عاقل، وتصنيف أهل الحكمة والعقل مع عامة الناس خطر على العامة وليس على الحكماء، فتقديمهم مسألة ضرورية للصالح العام، فحاجة العامة إلى العلماء أحوج من حاجة العلماء للعامة، فالإنصاف يقتضي التفاوت، فالغاية من التفاوت هو الإلتقان في الأداء الوظيفي، فهذه المدينة النموذج تقوم على مبدأ هو أن لكل شخص وظيفة واحدة، والجنود هم صنّاع حرية المدينة، أما الفلاسفة فهم صنّاع الفضيلة العامة كلها فالمواطنة "هي حرفة من نوع آخر، ولأن مكان الحرفة أو الفن ليس في الجسم" (٤٣).

والتناظر القائم بين الدولة والفرد قائم في تصنيف الفئات الاجتماعية إلى ثلاث، فإذا كانت النفس البشرية تتركب من ثلاث عناصر العقل والشهوة والغضب والتي تقوم على نظرية أفلاطون في المعرفة التي تصنف إلى نوع خاص بالإحساس وهو يقابل "القوة الشهوية في النفس"، وآخر خاص بالتصور الصادق وهو يقابل النفس

والابتعاد عن القيم داخل الحضارات، فكلما انتاب التفكك قيماً جديدة وعجزت قيم جديدة ناشئة عن السيادة، مثلت المدينة الفاضلة لمخيلة الناس، مجموعات كانوا أم أفراداً.

### ايتوبيا افلاطون:

النظام النموذجي في الفلسفة الأفلاطونية هو النظام السوفوقراطي، النظام القائم على سيادة العقل والحكمة، والنظام المطلق الذي لا يخضع فيه الحاكم لغير منطق الفلسفة والحكمة، فالعبرية السياسية وليدة الحكمة وهي أعلى من القانون.. "فحكومة العقلاء والفلاسفة فضلاً عن سلطتها المطلقة والفردية. يجب أن تكون ذات سلطان كلي وشامل تهيمن على جزئيات وعموميات حياة الإنسان." (٣٩).

من الملاحظات التي نرغب في تقديمها هو أن أفلاطون كان مثالا للواقعية والموضوعية وحجتنا في ذلك نستهلها بتحليل مصادر الفكر الأفلاطوني، فأول المعطيات أنه قام بدراسة تشخيصية وتحليلية للذات "دراسة دستورية" ولأنظمة الحكم "دراسة سياسية"، والكتاب الثامن من الجمهورية يقر بواقعية المرجعية السياسية التي اعتمد عليها أفلاطون "فالنظم.. هي حكومة كريت، واسبرطة التي أجمع الناس على امتداحها، والثانية الحكومة الاوليغاركية، والتي هي ملأى بالمساوي؛ والثالثة الديمقراطية، والرابعة هي الاستبداد، والحكومات الصغرى.. يمكن اعتبارها داخلية في سلك هذه الأربع كحلقات صغرى... (٤٠)، ويعتقد بعض الباحثين أن النظام الاجتماعي الذي قدّمه أفلاطون له أصول تاريخية (٤١).. فالديانة الهندية التي تقسم الناس إلى أربع طبقات: طبقة الكهنة الذين خلقوا من رأس براهما، وطبقة

٣٩- طعيمة الجرف، المدينة الفاضلة بين المثالية والواقعية في الفلسفة اليونانية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ٧٦ (د.ط.)

٤٠- أفلاطون، جمهورية أفلاطون، ترجمة حنا خباز، دار القلم، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٥ ص: ٢٣٦

٤١- محمد سيد احمد المسير، المجتمع المثالي في الفكر الإسلامي، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ص: ١٤٨ (د.ت.)

٤٢- أفلاطون، جمهورية أفلاطون، مرجع سابق ص: ١٥٥

٤٣- ليو ستراوس، تاريخ الفلسفة السياسية، ص: ٧٠

وهو في الرابعة عشرة، حيث أتقن اللاتينية.. ثم درس القانون في لندن وتوطدت بينه وبين أرازمس Érasme عالم الإنسانيات الشهير الذي زار إنجلترا، حيث ألقى محاضرات في لندن عن كتاب أوغسطين "مدينة الله"، وربما كانت البذور الأولى لما أودعه بعد ذلك من أفكار في كتابه "يوتوبيا"<sup>(٤٦)</sup>.

وكان توماس مور محاميا بارزا، وعضوا في نقابة المحامين بلندن، وأستاذ حقوق، وعضو برلمان، وسفير شرفه الملك هنري الثامن بأن أغدق عليه أعلى حظوة حين جعله في عام ١٥٢٩ رئيسا لقضاة إنجلترا، وذلك قبل أن ينتهي به الأمر لأن يقطع رأسه في عام ١٥٣٥ كما عرف بإخلاصه وتقواه، والتزامه بالقيم الأخلاقية.

يبدو لنا أن السعادة هي المطلب الخفي في كتاب يوتوبيا، والمشروع السياسي المثالي الذي عنون به كتابه، إذ نلاحظ من العنوان ذلك، إذ يتألف من ثلاث جمل: الأولى السياسة المثلى للدولة، ووصف يوتوبيا، الثانية: حديث روفائيل هيتلوداي، الثالثة كما يرويها توماس مور مواطن، ورئيس أمن المدينة الشهيرة لندن الجملة الأولى تحدد الغاية الأخلاقية من الدولة، فهي أداة ووسيلة لتحقيق وتجسيد القيم الأخلاقية، فالمثالي هو "المنسوب الى المثال، ويطلق على صورة الشيء الكاملة، أو على ما يحقق هذه الصورة تحقيقا تاما"<sup>(٤٧)</sup>. أما الجملة الثانية فهي جملة تؤدي دور الوسيط بين المطلب والطالب، ورافائيل هيتلوداي ترادف باليونانية ماهر في الهدر<sup>(٤٨)</sup>.

والعبارة تبعا للترجمة: "حديث رافاييل هيتلوداي" فهي ترمز للأسلوب المستخدم في التعبير عن الغاية وهو الحكاية في صيغة الحوار أولا، وبصيغة السرد في الكتاب الثاني، فالحديث هو الخطاب والاسم كما يقول ول ديورانت معناه

٤٦-عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة ج ٢ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١ ١٩٨٤ ص: ٤٨٣  
٤٧-جميل صليبا، المعجم الفلسفي الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢ ص: ٣٣٦ (د.ط.)  
٤٨- ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الرابع، المجلد السادس، ترجمة، عبدالحميد يونس، دار الجيل، بيروت، ص: ١٠٦ (د.ط.)

الغضبية، وثالث خاص بالعلم "القوة العاقلة"<sup>(٤٤)</sup> والدولة تتركب أيضا من هذه الطبقات الثلاث طبقة الحكام الحكماء، طبقة الجند، طبقة العامة، وهذا التقسيم كما قلنا سابقا لا ينطلق من رؤية فوقية يحتقر فيها أفلاطون عامة الناس "طبقة المنتجين من زراع ورعاة وصناع" بل ينطلق من مبدأ تقسيم العمل بين أفرادها، فكل طبقة من هذه الطبقات ينبغي أن تؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل متحلية بفضيلتها، فالدولة تشبه الجسد، فكل عضو مكلف بأداء وظيفة ما، والتكامل الوظيفي يقتضي أداء المهام بإتقان، ولذا لا ينبغي تدخل طبقة في صلاحيات أخرى لأن فساد الدولة يصبح حتميا ولازما "إذ من الخطر الويل على الدولة أن يتبادل النجار والحذاء حرفتيهما أو أن يتبادلا أدواتهما وأجورهما أو أن يصر شخص واحد على القيام بالحرفتين معا).

القصد الأفلاطوني لم يكن تبريرا للتفاوت الطبقي بل كان محاولة لتوزيع الكفاءات، والمهام داخل الدولة على أساس العدالة، فالعدالة هي أداء كل مواطن للواجب الذي يتناسب مع طبيعته ونجد نفس الموقف عند الأستاذ مصطفى النشار إذ يقول: "أعتقد أن أفلاطون لم يقصد وضع نظام طبقي متحجر كما قال نقاده بقدر ما كان يحاول بناء دولته المثالية على أساس اقتصادي سليم متوازن يقوم على تبادل المنافع بين طبقات الدولة وأفرادها بحيث يحل هذا التبادل للمنافع محل الفردية الأنانية التي يريد كل فرد في إطارها أن يقوم بعمل كل شيء دون أن يتخصص في شيء بعينه فيقتنه"<sup>(٤٥)</sup>.

### ايتوبيا توماس مور:

ولد السير توماس مور في لندن في السادس أو السابع من فبراير ١٤٧٨.. وكان أبوه جون مور قاضيا في المحكمة العليا، ودخل جامعة أكسفورد،

٤٤- عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، المرجع نفسه ص: ١٧٩.

٤٥- مصطفى النشار تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٠ ص: ٢٦٩ (د.ط.)

على تضمن الكتاب لفكرة وقيمة المواطنة، ومن بين اللحاظ السياسيّة، والأخلاقية التي تضمنها الكتاب أيضا المشاركة في القرار، والتسيير عبر الانتخاب، والنص التالي يكشف عن هذه القيمة: "تختار كل ثلاثين أسرة سنويا ممثلا أو رئيسا لها، كان يدعى بلغتهم القديمة سيفوجرانت، أما في اللغة الحديثة فيدعى فيلارك، ويقام على كل عشرة من الفيلارك والأسر التابعة لهم شخص كان يدعى قديما ترانيبور، أما الآن فيسمى بروتوفيلارك أو الرئيس الأول، وتنتخب الهيئة المؤلفة من الرؤساء أو السيفوجرانت، ويبلغ عددها مائتي شخص، بعد أن تقسم على اختيار الرجل الذي تراه أفضل المرشحين، وأكثرهم نفعاً، بطريق الاقتراع السري، حاكما، على أن يكون أحد أربعة يرشحهم الشعب، بحيث يختار واحد من كل من الأحياء الأربعة للمدينة ليرشح للمجلس)، ويبدو أن المشاركة للمواطنين في المسائل السياسيّة تجري سنويا، ولتحقيق العدالة بين سائر المواطنين تختار كل ثلاثين أسرة ممثلا عنه، حتى يساهم الجميع في القرار السياسي عبر الانتخاب والاختيار القائم على العدالة والأخلاقية، وألية الانتخاب أو التمثيل تأخذ ترتيبات معقدة حتى تصل إلى الحاكم الأول، والمعيار الذي يقوم عليه اختيار الممثلين هو الفضيلة" بعد أن تقسم على اختيار الرجل الذي تراه أفضل المرشحين وأكثرهم نفعاً)، فالأخلاق والالتزام بالقيم هو عنوان الممارسة السياسيّة، والبت في قضايا عامة دون علم الممثلين جريمة لا تغتفر: "أما مناقشة الأمور المتصلة بالصالح العام خارج مجلس الشعب فيعدّ جريمة من الدرجة الأولى"، فالسلطة والسيادة ليست ملكا للحاكم بل ملكا للشعب، وهي ما سيصطلح عليه لاحقا جان جاك روسو بالإرادة العامة.

المهارة، والقدرة على الصناعة اللفظية، أما الجملة الثالثة - كما يرويهِ توماس مور المواطن، فتقديم مور لصفة واسم المواطن، قبل رئيس امن دائرة لندن فيزيد البعد المواطني الذي كان يملكه مور، فهو فعلا نموذج المواطن الصالح، وبالتالي فإن القيم التي يقيم عليها المواطنة هي قيم المجتمع اليوتوبي الذي عاصمته امورات Amaurate فالمواطن الفاضل لا يملك إلا أن يتصور مجتمع "أفضل ومثالي" عبر الكلام، وإذا كانت المواطنة الحقيقية تتجسد في المشاركة السياسيّة، والحق في صنع القرار وعزل الحاكم إذا انحرف عن المسار المنوط به من قبل الناخبين، فإن هذه الدلالة واضحة وبينية في كتاب يوتوبيا لتوماس مور في عدة مواطن من الكتاب، ومنها: "ويشغل الحاكم منصبه طوال الحياة، ما لم يعزل إن أتهم بالميل للطغيان، أما الرؤساء الأول فينتخبون سنويا ولكنهم لا يستبدلون بغيرهم إلا لسبب قوي...<sup>(٤٩)</sup>.

يملك الحاكم في مدينة "مور" القدرة والصلاحية في البقاء على السلطة مدى الحياة، فمدة الحكم غير محدّدة دستوريا، نظرا لعدم أهميتها، فليس المهم أن يبقى الحاكم مدة أطول أو مدة أقصر، المهم الالتزام بالقيم الأخلاقية، وتجسيدها بين أفراد الشعب، والسعي الى الرقي والارتقاء؛ والشعب يملك عبر ممثليه الصلاحية في عزل الحاكم، وهذه القيمة تتصدّر السلم القيمي لمبدأ المواطنة، فالطغيان أو الاستبداد كاف لعزله واستبداله، واللطف في حديث مور أن الميل إلى الاستبداد كاف للعزل، ولا ينتظر الشعب ممارسة الطغيان من قبل الحاكم، كذلك اتهام مواطن من الجزيرة للحاكم أيضا كاف لعزله، وأعتقد أن مضمون هذه العبارة كاف للتدليل

٤٩- توماس مور، المصدر نفسه، ص: ١٣١

## المراجع

### الكتب المقدسة:

١. القرآن الكريم
٢. العهد الجديد، جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى القديم، بيروت، ١٩٦٤.

### قائمة المصادر والمراجع:

#### المصادر:

١. ابونصر الفارابي، كتاب الملة، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩١.
٢. أبونصر الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تعليق ألبير نصري نادر. دار المشرق. الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٨.
٣. توماس مور، يوتوبيا، ترجمة انجيل بطرس سمعان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ط: ٢، ١٩٨٧.

#### المراجع:

١. الرومي جلال الدين، مثنوي، ترجمة عبدالسلام كفا في الجزء الأول، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٦.
٢. بول ريكور، محاضرات في الايدولوجيا واليوتوبيا، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
٣. بازي "محمد"، العنوان في الثقافة العربية، منشورات الاختلاف، الجزائر الطبعة الأولى ٢٠١٢.
٤. توفيق الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩١.
٥. تييري باكو، طوبيا والطوباويون، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفارابي بيروت، ط. ١-٢٠٠٨.
٦. جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الجزء الثاني، ترجمة: حسن جلال العروسي، دار المعارف، مصر ١٩٦٩.
٧. حبيب الشاروني، فلسفة فرنسيس بيكون، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء (المغرب) ط١/ ١٩٨١.
٨. شريعتي "علي" الامة والامامة، ترجمة ابوعلي، مؤسسة الكتاب الثقافية (د.ط.ت)
٩. عبداللطيف عبادة، اجتماعية المعرفة الفلسفية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤ (د.ط)
- عطييات أبو السعود، الامل واليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ.
١٠. فاروق سعد، مع الفارابي والمدن الفاضلة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٢.

١١. ليوشتراوس، تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الأول، ترجمة محمود سيد احمد المجلس الأعلى للثقافة مصر، الطبعة الأولى ٢٠٠٥.
١٢. نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، الطبعة الخامسة ١٩٩٧.
١٣. هربارت ماركيز، نحو ثورة جديدة، ترجمة عبداللطيف شرارة، دار العودة، لبنان ١٩٧١ (د.ط)

#### المعاجم والموسوعات:

١. البستاني "عبدالله" البستان معجم لغوي، الجزء الثاني المطبعة الأميركية، بيروت، ١٩٣٠، (د.ط)
٢. صليبا، "جميل" المعجم الفلسفي الجزء الثاني، دارالكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢ (د.ط)
٣. عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠.
٤. مجموعة من المؤلفين، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣ (د.ط)
٥. عبده الحلو، معجم المصطلحات الفلسفية، المركز التربوي للبحوث والإنماء، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٤.

#### المجلات:

١. فصول - المجلد السابع العددان الثالث والرابع سبتمبر ١٩٨٧.
٢. العرب والفكر العالمي - العددان ١٩/٢٠ سنة ١٩٩٢.

#### المراجع بالفرنسية:

1. Bertrand vergely, le dico de la philosophie, ED, Milan Toulouse, 1998.
2. Erasme, Eloge de la folie, trd: marie delcourt, flammariion, paris, 1987.
3. P. foulquié Dictionnaire de la langue philosophique p.u.f.3eme édition, paris, 1978.
4. Saint augustin; la cite de dieu. Édition du seuil, Paris, 1994.